مدخل

(ديوغينس)، أحد فلاسفة الإغريق في العصور القديمة، أمضى حياته في برميل. كان (ألكسندر الكبير) الشهير معجباً به. (ألكسندر) هذا كان قد فتح أكبر إمبراطورية قائمة حتى ذلك الحين، وكان الحاكم المطلق لكل العالم المعروف وقتذاك تقريباً، وله السلطة على كل شيء في الدولة. وعلى الرغم من أنه كان يرى نفسه من سلالة الآلهة، إلاّ أنه كان يكنّ إعجاباً كبيراً لـ (ديوغينس) الفيلسوف، الذي كان يعيش عيشةً في منتهى التواضع. بيد أن الإعجاب لم يكن متبادلاً. ذات يوم، أتى (ألكسندر) إلى (ديوغينس) وقال له بكبرياء: «ديوغينس، اذكرْ أمنيةً لك، مهما كانت، وأنا أحقّقها لك». أجاب (ديوغينس): «تنحّ جانباً، فأنت تحجب الشمس عني».

لا شك في أن جميعنا يتمنى لو يخطر له مثل هذا الردّ شخصياً. فهو ردّ ظريف وله أكثر من معنى وفيه وخز ونقد مستتر. إنها سرعة البديهة بعينها.

يعالج هذا الكتاب سرعة البديهة من ناحية قابليتها للمحاكاة.

صحيح أن الأجوبة الفلسفية، كجواب (ديوغينس)، لا يمكن تعميمها وتبويبها، بيد أنني أقدّم لك، عزيزي القارئ، ما يكفي من نماذج ردود الأفعال أو الارتكاس، كي لا تعدم جواباً على الإطلاق بعد الآن.

يعاني الكثير من الناس من مشكلة تتمثّل في انعقاد لسانهم وعجزهم عن الكلام في الموقف الذي يشعرون فيه بالتعرّض للهجوم، وينتابهم إحساس بضعف غير مبرَّر. ولا تخطر لهم، إلاّ بعد ساعات، الجملة الرائعة التي كان بإمكانهم الردّ بها في ذاك الموقف.

ابنة أخي (ميشائيلا) تموّل دراستها الجامعية من خلال عمل جانبي تقوم به. في إحدى الفترات استُخدِمَت للعمل في افتتاح معرض صور. وكان (أندرياس)، أحد معارفي البعيدين، استُخدِمَ أيضاً لالتقاط الصور عند المتعهّدة ذاتها. وكان من ذلك النوع من الأشخاص الذين يحلو لهم أن يعدّوا أنفسهم من المجتمع الأنيق، وهم في الحقيقة لا يتنطّطون ويتسكّعون إلاّ على هامش هذا المجتمع.

في أحد الأيام، بينما كان الضيوف يتفرّجون على الصور، توجّه (أندرياس) نحو (ميشائيلا)، قاسها طولاً وعرضاً، ثم قال لها، تعلو وجهه ابتسامة تشنّجية شامتة: «تبدين محترفة، ولكن ثمة تلميحة صغيرة: سوف تدفعين هنا كي تضحكي. هل

فهمتني؟». ثم تابع جولته متّئد الخطى باسترخاء متعمَّد.

عندما فطنت (ميشائيلا) إلى أنه كان عليها أن تردّ بشيء ما، كان الأوان قد فات وأصبح الرجل خارج نطاق السمع. اشتدّ غيظها: «من يظنّ نفسه حقاً؟ إنه مستخدم من قبل المضيفة مثلي تماماً. لا يحقّ له أن يقول لي شيئاً على الإطلاق. وأكثر من ذلك، من علياء أنفه».

في وسعك، عزيزي القارئ، أن تتصور كيف أرهقت (ميشائيلا) نفسها بعد ذلك في التفكير في الردّ الأفضل الذي كان عليها النطق به.

لا شك في أن كل منا سبق أن مرّ بمثل هذا الغضب الحائر العاجز. ولكن، بالاستراتيجية الصحيحة والرأي السليم نفلح في الارتكاس السريع في مثل هذه المواقف. ليس مئة بالمئة من الحالات، ولكن بنسبة أكبر بكثير مما لو انخرطنا في الموقف دون استراتيجية.